الإمام الثائر محمد عبده

إذا كان يحلوا لهم أن يُلقبوا الإمام (محمد عبده) بأنه الأستاذ الإمام، فإني أُلقبه بالإمام الثائر.! هذه الثورة التي صاحبته في بواكير حياته من مواجهة المحتلين، والحكام العملاء الخائنين.. هذه الثورة التي استمد بذورها الأولى من آبائه وأجداده الذين كانوا يقفون لجور الولاة وجشعهم في جباية المظالم.. ثم كان لقاءه بالثائر الأكبر الذي أرسل في نفسه أشعة الحماسة، وأشعل فيها لهيب الثورة.. الثورة على الجهل والظلم والخيانة والاستعمار.. فبعد محاولات من التمرد على رغبة الأسرة، استطاع الفتى محمد عبده أن ينتظم في الدراسة بالأزهر الشريف، وكان مقدرًا له أن يكون عالمًا كأي عالم يتخرج منه ليحمل الفكر التقليدي الذي عليه كافة الأزهريين في الغسل والطهارة والمواريث.. لو لا أن حدثت نقطة تحول في حياته، جعلت منه الثائر الأكبر وقائد الأمة وحامل همومها وموجه فكرها ووعيها، حينما قابل موقظ الشرق وفيلسوف الإسلام، وعظيم المسلمين (جمال الدين الأفغاني).. بدأ (محمد عبده) يتلقى العلم على يد جمال الدين علومًا كانت جديدة في محيط الأزهريين.. ولكن أعظم هذه الدروس وأشدها أثرًا هو ذلك السحر الروحي الذي تلقاه عنه، كانت لجمال الدين قدرات شخصية وعلمية، على غير ما عهد من شيوخ الدين.. كان داهية في علمه وعقله ووعيه وعمقه وتفكيره، وكما حكى عنه تلاميذه: "كان يشرح العبارة ليستخرج منها قوة حية تسري إلى النفس فتحركها إلى العمل، وكأنما الكلمات المشروحة على لسان تلك المفاتيح الصغيرة، التي تدار فتنبعث منها قوى من الكهرباء لا يستقر عليها قرار"

هذا هو المعلم الذي تعلم على يديه (محمد عبده) ونهل منه وتشبع بأفكاره.. ومن جهة أخرى لمح جمال الدين، سِمات النجابة والعبقرية في جبين الفتى الناشيء، فاهتم به ورعاه.. لقد أخذ الشيخ وتلميذه على عاتقهما نهضة العالم الإسلامي، وتعاهدا أن يقفا في وجه المحتلين، ويقاوما الحكام الخائنين المتخاذلين.

لقد كان من أكثر وأبرز السمات التي استقاها التلميذ محمد عبده من شيخه جمال الدين، هي استخفافه بالسلاطين والملوك، مهما علا سلطنهم وارتفع ملكهم.. لقد كان جمال الدين يراهم في عينه صغارًا، ويومًا ما كان يعبث بمسبحته في حضرة السلطان (عبد الحميد الثاني)، فنبهه رئيس الديوان إلى قواعد التشريفة، فأجابه ساخرًا: مَه يا هذا، إن السلطان يعبث بحياة ثلاثين مليونًا من بني آدم، أفلا يلعب جمال الدين بثلاثين حبة من الكهرمان.!

أما التلميذ، فإن الخديوي (عباس حلمي الثاني) كان يشكو من مسلكه معه ويقول: يدخل علي وكأنه فرعون! فلما بلغه ذلك قال: وأينا فرعون؟!

يقول الأستاذ (طاهر الطناحي): ساءت علاقة الخديوي بمحمد عبده، وما زالت تسوء حتى بلغت الغاية، ولكن الشيخ كان من الشجاعة الوطنية على حد كبير فلم يتأثر بإعراض الخديوي عنه، ولم يخش استبداده ومضايقته، بل كان يقف من العدالة وحق الوطن، ما اشتهر عنه في عدة مواقف، حتى أصبح العدو الأكبر للخديوي عباس حلمي، وكان محمد عبده يستعين عليه بما يملك من شخصية عظيمة مهيبة في الأمة، وكان يجهر برأيه في كل أمر يراه من مصلحة البلاد.

دعا أحد المنافقين يومًا للخديوي عباس وعائلته عام ١٩٠٢م أن يقيموا ذكرى جده محمد علي بمناسبة مرور ١٠٠ عام على حكمه، في مايو سنة

١٩٠٥م، فرأى محمد عبده أن الاحتفال ما هو في حقيقته إلا تقديس للاستبداد، وتسجيل على الأمة شرفًا مزعومًا، وحكمًا مغصوبًا، كله أنانية وظلم وجور، فكتب مقاله الناري في المنار تحت عنوان: (آثار محمد علي في مصر) وكان مما ذكر قوله: "ما الذي صنعه محمد علي؟ لم يستطع أن يُحيي، ولكن استطاع أن يُميت، كان معظم قوة الجيش معه، وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب، على إعدام كل رأس من خصومه، ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً فيمحقه.. وهكذا حتى إذا سُحقت الأحزاب القوية، وجّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة، فلم يَدَع فيها رأسا يستقر فيه ضمير "أنا".. اتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهلين، وتكرر ذلك منه مرارًا حتى فسد بأس الأهلين، وزالت ملكة الشجاعة فيهم، وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها، فلم يبق في البلاد رأسا يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه، أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.. أخذ يرفع الأسافل ويُعليهم في البلاد والقرى، كأنه يَحِن لشَبَه فيه ورثه عن أصله الكريم! حتى انحط الكرام وساد اللئام، ولم يبق في البلاد إلا آلات له يستعملها في جباية الأموال، وجمع العساكر بأية طريقة، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأيٍ وعزيمة واستقلال نفس، ليُصَيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعًا واحدًا له ولأولاده، بعد إقطاعات كانت لأمراء عدة.. ماذا صنع بعد ذلك؟ اشر أبت نفسه لأن يكون ملكًا غير تابع للسلطان العثماني، فجعل من العُدة لذلك أن يستعين بالأوربيين، فأوسع لهم في المجاملة، وزاد لهم في الامتياز، حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه، ملكًا من الملوك في بلادنا، يفعل ما يشاء ولا يُسأل عما يفعل، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم، وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها، و انقلب

الوطني غريبًا في داره غير مطمئن في قراره.. فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذُلان ...ذُل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة، وذُل سامهم الأجنبي إياه، ليصل إلى ما يريده منهم ...غيرو اقف عند حد أو مردود إلى شريعة."

فأي جرأة كان عليها الشيخ، وهو يجأر بالحق ليظهر حقيقة مؤسس الدولة، وَجَدُ الحاكم الذي تُغضبه هذه الصراحة وهذه الحقيقة؟!

لقد جاء جمال الدين إلى مصر ليقود انقلابًا ضد الخديوي اسماعيل، ويزيحه عن العرش بكل عوامل الضغط السياسي، وإذا كان هذا فعل الحكيم الكبير، فإن الفتى الشاب كان يرى ضرورة التغيير، ولو كلفه ذلك أن يقوم بقتل اسماعيل نفسه، إن تعذر محوه بالإعفاء أو من السلطان، وهي رغبة متهورة يشفع لها سِنه وشبابه وحماسته، وبعد أن تم لهما مرادهما في خلع اسماعيل، جاء توفيق فخدع الثوار، وتآمر لطرد جمال الدين من مصر ونفيه إلى باريس.. وجاءت الثورة العُرابية التي ناصرها (محمد عبده) وأيد أهدافها ورجالها، ولكنه لم يكن مجرد شريك أو مجرد ثائر من الثوار، أو مؤيد للحركة التي قامت، وإنما كان محمد عبده أكبر من ذلك بكثير، فيمكننا أن نقول بأنه هو مفجر هذه الثورة، بكتاباته ومقالاته التي أنارت فِكر الأمة، وهداها لمطالبها من الحرية والاصلاح، لقد كان المجتمع كله متأثرا بآراء الأستاذ الإمام، مما مهد الطريق لهذه الثورة الاصلاحية.. يقول العقاد: (كان محمد عبده ثائرًا ..لكنه لم يكن عرابيًا) ومعنى هذا، أنه كان يختلف معهم في كثير من الآراء والتوجهات، لقد أيدها في رفضها للحاكم التابع للإنجليز، ويؤيدها في طلبها لرفع المظالم وإصلاح الحكم وإسناد المناصب للوطنين، وحذرهم من أمور قد تُعرض البلاد لخطر الاحتلال، فكان ما كان مما رآه، لبعد نظره وحسن حكمته، حتى وفشلت الثورة العرابية، وحوكم رجالها، ونفي محمد عبده ٣ سنوات إلى بيروت.

ثم لحق بأستاذه في فرنسا، ليستأنفا معًا رحلة نضال جديدة تمثلت في إنشاء مجلة (العروة الوثقى) التي قامت تحارب الاستعمار وتفضحه في كل مكان، وتُعري الحكام الخائنين الذين تآمروا على أوطانهم وأمتهم.. وتوحيد صفوف الأمة العربية مسيحيين ومسلمين، ليقف الجميع في صف واحد أمام عدوهم.! لقد كان لمحمد عبده مقالاته ودوره السياسي الكبير، في تنفيذ أهداف العروة الوثقى، وكان له هذا الموقف المشهود، حينما أرسله جمال الدين لإنجلترا لفضح المستعمر الذي أوهم العالم والمصريين، أن المهدي في السودان خطر على مصر والمصريين، لأنه يريد غزوها، فقال محمد عبده :الخطر الحقيقي هم الإنجليز، ولو زالوا لما فكر المهدي في شيء، ولما سئل عن الخديوي توفيق، كان رأيه الصادح الجريء: (إن توفيق باشا أساء لنا أبلغ الإساءة، لأنه مهد لدخولكم بلادنا، ورجل مثله انضم إلى أعدائنا في قتالنا لا نشعر إزاءه بأقل احترام، لكنه إذا ندم على ما فرط منه وعمل على الخلاص منكم، غفرنا له سيئاته، إننا لا نُريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم إنجليزية) وهذه الجرأة المتناهية في الحديث عن حاكم، لا يقوى عليها إلا رجل جسور ومجاهد صُلب، لا يخشى أي عاقبه في سبيل قضيته، وكان الأولى به أن يُخفف من حدة حديثه، حتى تلين له السلطة، فلا تُضاعف مدة النفي الذي أصدرته، أو لعلها تتغاضى عن استكماله فيعود لوطنه وأهله وأسرته و أبنائه، ولكن الحق عنده أعظم من كل شيء.. ولقد ظلت العروة الوثقى منارة تُضي الطريق لأبناء الأمه، وتدلهم على دروب الحرية، وتوقظ فيهم بواعث النضال، وما كان للاستعمار وأذنابه أن يتركوها تؤرقهم وتفسد عليهم مكاسبهم وأطماعهم، حيث أغلقوها بعد ٨ شهور و١٨ عددًا، وتفرق البطلين، فذهب الأفغاني إلى روسيا ورجع محمد علي إلى مصر، ليوجه خطابه للأمم، بدلاً من الملوك، ويغير خطة أستاذه في الإصلاح..

ولعل هناك قطاعًا كبيرًا ممن تسوقهم الشبهات، ينكر عظمة وبلاء هذا الإمام الكبير، هو وأستاذه الذي ملأ طباق الأرض جهادًا وكفاحًا من أجل إحياء مجد أمته وحريتها.. ولعل هذا ظلم كبير و افتئات عظيم، تناوله كثير من البصراء وردوا عليه، ولكن لابد من التنويه بشبهة أحدهم حينما قال: إذا تحدثتم عن محمد عبده ليكن الحديث بعد النفي لا قبله، حين تبدل حاله وتغير مآله، وهنا نقول: هل يعني إذا غير الرجل وجهته لسبيل آخر من سبل النضال، أن نمحي هذا الجزء الكبير والسنين الطويلة التي قضاها مناضلا مكافحًا ثائرًا؟! إن الشيخ عاد لمصر بعفو من الخديوي توفيق، الذي اشترط عليه عدم العمل بالسياسة فو افق؟ ولكن هذه المو افقة لم تكن ضعفًا أو تسليمًا، و إنما لأن الشيخ رأى باجتهاده، ضرورة العمل بمنهج آخر ،وأسلوب مغاير لأسلوب أستاذه الأفغاني، ومن هنا كان لابد أن نرصد هذه الفترة الثورية، التي كان عليها الشيخ في مطالع حياته، والتي لا يستطيع أي تحول في الدنيا أن ينفيها أو يلغيها أو يقلل من قيمتها وقدرها.. اللهم إلا شيئًا واحدًا فقط، هو الذي كان بقدرته أن يقضي على هذه الفترة المشرفة من الكفاح الوطني، وهي أن يقدم الإمام نفسه اعتذارًا عنها ورفضًا لها، ويأسف على طول صدامه للحاكم والمحتل، ولكن ذلك لم يحدث وما كان له أن يحدث.!
ولعل سؤالاً يطرح نفسه الآن وهو: هل وفى الشيخ بما عاهد عليه توفيق بالبعد عن السياسة، ربما حدث ذلك.. لكن العهد تغير وجاء التنافر بين العالم الحر الكبير مع الخديوي الجديد عباس حلمي الثاني تُنبئ بغير هذا.!
وبعد هذه المو اقف الكثيرة والرحلة النضالية الطويلة.. هل مازال المتنكرون للإمام، يصرون على ظُلمه و إنكار كفاحه العريض في سبيل حرية الأمة..هل مازالوا ينكرون عليه أن يكون مثالا للعالم الثوري الصُلب، الذي يقول الحق غير مرتجف أو هياب؟! بل هل مازالوا ينكرون علينا أن نصفه بالإمام الثائر؟!